

أعمال الصيانة والترميم لمسجد القسطل الأثري

أحمد لاش

Restoration and Rehabilitation of Al-Qastal Mosque

Abstract:

Al-Qastal which consider as one of the most famous Umayyad ruin, is located 35 km south Amman. The most significant part in this site is the Umayyad mosque and its unique minaret, which consider as the oldest Islamic minaret in the Islamic world (still standing), the mosque was in very bad and dangerous situation. In this paper I'll speak about the restoration, rehabilitation, and protection works, particularly the reconstruction of the western wall, the protection of the courtyard and the restoration and rehabilitation of the internal part of the mosque. Also I'm going to follow the Mesopotamians influences which appeared in the Umayyad monuments in Transjordan in the eight century AD.

مقدمة

به أو مت كريماً تحت ظل القسطل)، وكذلك وردت كنوع من الشجر، كما يرد اسم القسطل بمعنى الأنبوب من الخزف أو غيره يجري به الماء. إن الغاية من ذكر هذه التعريفات هو تنفيذ ما ذهب إليه البعض من احتمالية تحوير اسم القسطل من المصطلح اللاتيني (Castellum)، فالقسطل اسم عربي صريح وقد عُرِفَت الكثير من المناطق باسم القسطل، مثل القسطل بالقرب من حمص، والقسطل في فلسطين بالإضافة إلى قسطل البلقاء، كما أن قسطل البلقاء قد عُرِفَت بهذا الاسم قبل العصر الأموي، فقد ذكرتها المصادر التي تحدثت عن الخليفة الراشد أبو بكر الصديق وفتوحاته في بلاد الأردن عندما أشارت أنه قد بلغها جيش خالد بن سعيد (الطبري ١٩٦١: ٣)

منذ نهايات القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين وبدايات هذا القرن شهد موقع القسطل العديد من زيارات الباحثين والمستكشفين والذين

تعددت التفسيرات اللغوية لمعنى القسطل، فيورد ياقوت الحموي في معجم البلدان بأن القسطل في لغة العرب تعني الغبار الساطع، وفي لغة أهل الشام تعني الموقع الذي تفترق منه المياه، وفي لغة أهل المغرب تعني الشاه بلوط الذي يؤكل (وهي ما نطلق عليه "الكستناء". المؤلف)، ويضيف الحموي بأن القسطل موقع بين حمص ودمشق وقسطل موضع قرب البلقاء من أرض دمشق في طريق المدينة (الحموي ١٩٩٣)، كما يشير عبدالله الأندلسي في كتابه معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، بأن القسطل موضعان متقاربان من عمل البلقاء بدمشق (البكري ١٩٨٣). هذا وقد أوردت المصادر العربية معانٍ متعددة لكلمة القسطل بالإضافة إلى الإشارة إليه كاسم موقع، فقد وردت بمعنى غبار الحرب، فكان من المشهور من شعر عنتر بن شداد قوله (واختر لنفسك منزلاً تعلق

مسجد القسطل، والتي تُعتبر أيقونة معمارية مميزة لهذا الموقع باعتبارها أقدم مئذنة مازالت قائمة على مستوى العالم.

أعمال الترميم وإعادة التأهيل للمسجد الجدار الغربي

بالإضافة لأعمال الصيانة والترميم اللازمة لهذا الجدار، فقد كان الدافع الأساسي للعمل به هو ما يشكله من خطورة كبيرة في حال انهياره وخاصة منطقة المدخل الرئيسي فيه والتي كانت معرضة للانهدام في أي لحظة وبسبب أي اهتزاز كما هو واضح في (الشكلين ١، ٢)، ولإجراء التقييم الدقيق لحالة الجدار وتحديد طبيعة التدخل المناسبة كان لا بد من تنظيف المنطقة الملاصقة للجدار من نباتات وأشجار نمت ما بين مداميكه كما هو واضح في (الشكل ٣)، وبعد إزالة تلك الأشجار والنباتات اتضحت الحالة الخطرة التي يعاني منها ذلك الجدار، فهذا الجدار الذي يمتد على طول (١٩,٢٥ م) وبارتفاع (٤ م) قد بني على أرض تنحدر نحو الشمال بحيث يتكون الجزء السفلي منه من جدار بُني من أربع صفوف من الحجارة بسماكة تصل إلى (١٢٥سم)، لتشكل أساساً للجزء العلوي والذي تنحصر سماكته إلى (٦٥سم)، كما اتضح حجم الميلان في الجهة الجنوبية من هذا الجدار، حيث وصل حجم اندفاعه نحو الغرب (٣٧ سم) عن مستوى حجارة

قاموا بالعديد من أعمال الدراسة والتوثيق لهذا المعلم الحضاري الإسلامي الهام، مثل الألمانين برونو ودوماسفكي، والفرنسيان جسين وسيفنيك، ونلسون غلوك وكريزويل ولانكستر هاردنغ وهانز جوبه وغيرهم الكثيرون، بالإضافة إلى بعض أعمال الصيانة والترميم والتنقيب، فقد قامت دائرة الآثار العامة بتنفيذ أعمال الصيانة لمسجد القسطل سنة ١٩٦٢، كما قامت البعثة الفرنسية برئاسة باتريشيا كارليير وفريدريك مورين بالتعاون مع دائرة الآثار العامة بإجراء أعمال التنقيب والمسح الأثري لموقع القسطل والمنطقة المحيطة به خلال الفترة من ١٩٧٩ - ١٩٨٥ وقد يكون هذا المشروع من أكثر المشاريع تعمقاً في الدراسة التحليلية للموقع من الناحية المعمارية والتي خلّصت إلى ما لا يدع مجالاً للشك بأن قصر القسطل ومسجده هما بناء عربي إسلامي خالص، وتُرجّح نتائج عمل تلك البعثة، اعتماداً على مقارنة وحدة القياس المستخدمة في بناء الموقع وهي (الذراع) بأن القصر ومسجده قد بنيا في فترة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان والذي حكم خلال الفترة من ٦٨٥ إلى ٧٠٥ م (Carlier and Morin 1987)، كما قامت إرن أديسون بإجراء بعض التنقيبات الأثرية في الموقع سنة ١٩٩٩، وقد يكون من أهم أعمال الترميم التي تمت في الموقع هو ما قام به الدكتور غازي بييشة سنة ٢٠٠٤ من أعمال الترميم وإعادة البناء لمئذنة



١. مدخل الجدار الغربي من الداخل قبل الترميم.



٢. مدخل الجدار الغربي من الخارج قبل الترميم.



٣. الجدار الغربي قبل إزالة الأشجار والنباتات.

المستندة على بعضها بطريقة خطيرة جداً شكّلت خطورة بالغة عند القيام بأي تدخّل في ذلك الجدار كما يتضح من (الشكلين ٤، ٥) ، وأمام ذلك الوضع البالغ الخطورة كان الحل الوحيد المُتاح هو فك الجزء الأكثر خطورة في الجدار و البالغ طوله (١٢,٦١م) وإعادة بناء الأساس المفقود بطول (١٩,١٤م) وذلك باستخدام نفس الحجارة وإعادة كل حجر لموقعه الأصلي واستبدال التالف منها وملئ الفراغات الناتجة

الأساس على طول (١٢,٦١م)، ومما ضاعف من خطورة وضع ذلك الجدار وخاصة في الجهة الجنوبية منه، أن حجارة الأساس في معظمها مفقودة، ربما نتيجةً لاقتلاعها في فترات سابقة بحيث أصبح ذلك الجزء من الجدار يستند على التراب فقط، أما أخطر ما في ذلك الجدار فهو أن المادة الرابطة بين صفيّ الجدار مفقودة في معظم أجزائه، بحيث لم يعد يوجد ما يربط صفيّ الجدار ببعضهما سوى ثقل الحجارة



٤ . الجدار الغربي بعد إزالة الأشجار والنباتات.



٥ . عدم وجود المادة الرابطة بين حجارة الجدار.

الذي كان عليه، كما لا يوجد خلاف على عدم استخدام أي مواد حديثة خلال عملية الترميم والإقتصار على استخدام نفس المادة الرابطة التي كانت مستخدمة عند بناء الجدار في المرحلة الأموية، وهي الرمل والجير وحببيات الحصى الصغيرة (رمل السيل)، إلا أن التحدي الأكبر يظهر عند العلم بأن هذا المسجد الذي بني في الفترة الأموية وتم استخدامه وأعيد بناء أجزاء منه في الفترة الأيوبية والمملوكية والعثمانية وحتى في

عن الحجارة المفقودة بحجارة جديدة من الحجارة المنتشرة في الموقع بحيث لم تتجاوز نسبة الحجارة المستبدلة والمضافة على طول ذلك الجدار الخمسة بالمئة (٠,٠٥٪) من مجموع حجارة الجدار.

إن عملية إعادة البناء هذه قد وضعنا أمام تحدٍ لمنهجية يجب اعتمادها قبل الشروع في عملية إعادة البناء، فلا يوجد خلاف حول وجوب إعادة كل حجر من حجارة الجدار إلى موضعه الأصلي وبالشكل

لاش: أعمال الصيانة والترميم لمسجد القسطل الأثري

والتي اتضح منها أنه لم يحدث أي تغيير على شكل هذا المدخل منذ تلك الفترة على الأقل باستثناء حجر واحد يبدو أنه قد تم انتزاعه لاحقاً واستبداله بحجرين صغيرين غير منتظمين الشكل زادا من خطورة وضع المدخل، فخلصنا إلى نتيجة أن المدخل بشكله الحالي يعود إلى فترة القرن التاسع عشر على أقل تقدير أي أنه قد أعيد بناؤه بهذا الشكل خلال الفترة العثمانية أو المملوكية، وعليه فقد استقر قرارنا على إعادة بنائه بنفس الشكل وإعادة كل حجر إلى موضعه، إلا أنه نتيجة لفقدان حجارة مداميك الوجه الداخلي من الجدار فوق المدخل وضرورة ملئها بحجارة جديدة كان لابد من استبدال العتبة العلوية من المدخل بأخرى أكثر سمكاً بحيث تكون قادرة على حمل مداميك الوجه الداخلي والخارجي للجدار فوق المدخل. وعليه فقد تم اعتماد هذه المنهجية في إعادة البناء حيث تم فك ما طوله (١٢,٦١م) من الجدار (الشكلين ٧، ٨)

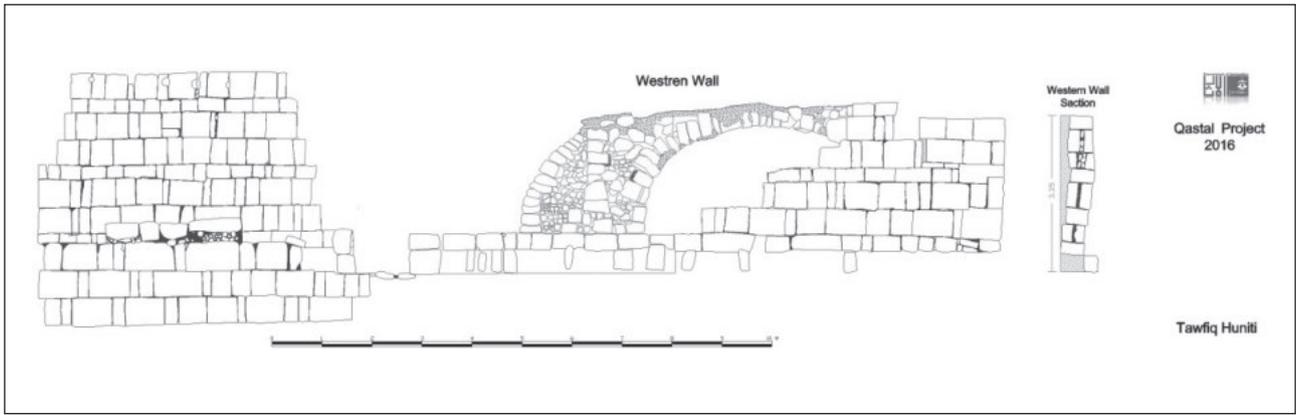
الفترة الحديثة في مطلع القرن العشرين، وتوضح تلك التعديلات الطارئة على الجدار الغربي في المدخل الواقع في منتصفه بعرض (٥٩سم) وارتفاع (١٣٩سم) وكذلك في بعض الأجزاء الجنوبية من ذلك الجدار والمتمثلة بفجوتين على شكل نافذة، فلا يوجد أدنى شك بأن ذلك المدخل لا يتزامن مع الجدار الأموي (الجدار الغربي) فمن الواضح أن هذا الجزء من الجدار قد تعرض للإنهيار في فترات سابقة ثم أعيد بناء المدخل بشكله الحالي بحيث لا يتشابه نهائياً مع شكل المداخل الشائعة في العمارة الأموية والمنتشرة في أروقة قصر القسطل، وعند بحثنا في أقدم ما هو متوفر من صور لهذا الجزء من الجدار قام الأب جان ميشيل من معهد الدراسات التوراتية التابعة للأباء الدومنيكان في القدس بتزويدنا مشكوراً بما لديه من صور قام بالتقاطها الأباء الدومنيكان جيسن وسفنيك لهذا الجزء من الجدار في تسعينيات القرن التاسع عشر (الشكل ٦)،



٦. الصورة التي التقطها الأباء الدومنيكان للجدار.



٧. مخطط ١.



٨. مخطط ٢.

نوعاً من الحماية لذلك الجدار، إلا أنها وبنفس الوقت وبسبب امتلائها بكميات من التراب الذي تسربت له مياه الأمطار عبر مئات السنين، قد شكّلت مصدراً للرطوبة التي تراكمت في تلك التربة وانتقلت إلى حجارة الجدار الشمالي للمسجد وإلى الجزء الملاصق لتلك الدعامية من حجارة الجدار الغربي، ولهذا فقد قمنا عند بداية موسم الصيف ٢٠١٧ بتنظيف ما يتخلل حجارة تلك الدعامية من تراب ونباتات وخلق فتحات تسمح بدخول الهواء والحرارة إلى ما خلف حجارة تلك الدعامية بحيث تبقى متعرضة طوال فترة الصيف لأشعة الشمس المباشرة لتعمل على تبخير ما تخزن بين حجارتها من رطوبة، ومن ثم إعادة تكحيل تلك الفتحات قبل دخول الموسم المطري لعدم السماح لمياه الأمطار للتسرب مجدداً إلى ما خلف حجارة

وإعادة بناء ذلك الجزء من الجدار حجراً حجراً بشكل مستو وإعادة كل حجر إلى موضعه الأصلي بنفس الوضعية التي كان عليها باستثناء ما هو تالف أو مفقود منها كما أشرنا سابقاً، وهذا ما تم بعد أن قمنا بتوثيق كافة التفاصيل في الجدار ورسمه وترقيم حجارتها، وقد رافق تلك الأعمال إعادة دفن الخندق الإختباري الذي تم عمله خلال المشاريع السابقة ملاصقاً للجزء الشمالي من الجدار بجانب قاعدة المئذنة، كما تم إزالة كافة النباتات والأشجار التي كانت تخرج من أساسات ومداميك الجدار وحقق ما استعصى من جذور تلك الأشجار بالمواد الكيميائية المناسبة لقتلها وعدم نموها مجدداً. (الشكل ٩)

لقد شكّلت الدعامية الحجرية التي بنيت في الفترة الأيوبية المملوكية أمام الجدار الشمالي للمسجد



٩. الجدار الغربي بعد الترميم.

لاش: أعمال الصيانة والترميم لمسجد القسطل الأثري

الساحة الخارجية للمسجد

بالإستناد إلى خطة العمل الموضوعة لأعمال الصيانة والترميم فقد تم إعادة دفن المجسات والحفر التي كانت تنتشر في ساحة المسجد وتنظيفها من الحجارة التي كانت منتشرة بها وترتيب تلك الحجارة في الساحة الملاصقة للمسجد من الجهة الشرقية، وكذلك تم تغطية فوهة البئر الموجود في ساحة المسجد بغطاء حجري يسمح بدخول مياه الأمطار إلى ذلك البئر، وبعد ذلك تم تغطية ساحة المسجد بطبقة من الحصى تسهيلاً لمسير مرتادي المسجد وتجنباً لتشكيل الطين والوحل في فصل الشتاء في حال بقيت أرضية الساحة مغطاة بالتراب. (الشكل ١٢).

ومن الأعمال الأخرى التي شملتها خطة الصيانة

تلك الدعامية، وذلك طبعاً بعد إغلاق كافة الفتحات الموجودة في سقف المسجد وحوافه والتي قد تشكل منفذاً تتسرب منها مياه الأمطار.

وبعد الإنتهاء من إعادة بناء الجزء الجنوبي من الجدار الغربي كان لابد من معالجة الجزء الشمالي منه وبالذات الوجه الداخلي حيث يتضح فقدان بعض الحجارة بالإضافة إلى فقدان مساحة كبيرة من حجارة الوجه الداخلي بعرض يتراوح من (١٠٠ إلى ١٦٢ سم) وارتفاع (٢,٥٨م)، (الشكل ١٠) والتي كانت تشكل خطورة تهدد بانتهيار جزء كبير من الجدار في حال تركها على هذه الحال، وعليه فقد تم إعادة بناء ما هو مفقود من حجارة في ذلك الجزء من الجدار كما هو واضح في (الشكل ١١).



١٠. الجدار الغربي من الداخل قبل الترميم.



١١. الجدار الغربي من الداخل بعد الترميم.



١٢. ساحة المسجد بعد فرشها بالصحى.

وموازنة باقي أجزاء الجدار (الشكلين ١٣، ١٤). والجدير بالذكر أنه من المرجح أن المدخلين الواقعين في الجهة الشمالية قد استحدثا في فترة لاحقة وعلى الأغلب خلال الفترة الأيوبية المملوكية نظراً لتساوي عتباتهما مع مستوى الأرضية الحالية للساحة وعثورنا على كسر من الفخار الأيوبي المملوكي بين مداميك ذلك الجدار خلال عملية التنظيف، في حين يظهر مدخل آخر بعرض (٩٣سم) يتوسط هذين المدخلين

والترميم هو ترميم الجدار الشمالي للساحة وبالأخص الجزء الواقع بين المدخلين الشماليين والذي يظهر منه على مستوى سطح الأرض مدمكين من الحجارة ويمتدان بطول (٧٢,٥م) وبارتفاع يتراوح من (٨٤-٨٩سم)، حيث يظهر في هذا الجزء من الجدار اندفاع واضح نحو الجنوب وفقدان لخمس حجارة من حجارة المدمك الثاني فتم العمل على تعديل حجارة المدمك الأول و تركيب خمسة حجارة مكان الحجارة المفقودة



١٣. جدار الساحة الشمالي قبل الترميم.



١٤. جدار الساحة الشمالي بعد الترميم.

مدماك واحد ارتفاعه (٥٣سم) وعرضه (٦٦سم)، بحيث يشكل هذا الجزء من الجدار مدخلاً واضحاً لساحة المسجد من الجهة الشرقية ويشكل ذلك الجدار مانعاً للسيارات والآليات للدخول إلى ساحة المسجد، دون إحداث تدخل ملحوظ في المظاهر المعمارية لهذا الجدار. (الشكلين ١٥، ١٦).

إعادة تأهيل المسجد من الداخل

أما الجزء المخصص للصلاة في المسجد فقد تم إزالة كل التمديدات الكهربائية السابقة فيه والتي كانت تشكل تشوهاً بصرياً داخل المسجد واستبدالها بتمديدات داخلية غير ظاهرة للعيان وإنارة المسجد من الداخل بمصابيح ذات طابع تراثي، كما تم تمديد الإنارة غير المرئية لتتوزع في زوايا الساحة الخارجية للمسجد لإنارتها ليلاً لمرتادي المسجد في صلاتي العشاء والفجر، كما قمنا أيضاً باستبدال الباب الحديدي للمسجد بباب آخر خشبي قام الفريق العامل بالمشروع بتفصيله يدوياً داخل الموقع بحيث يتماشى مع الطبيعة الأثرية لهذا المسجد، ولدى مخاطبة وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية بتأمين السجاد وأجهزة الصوت اللازمة للمسجد لم تتردد بتأمين تلك المتطلبات وقد كان للمهندس عبدالله العبادي من وزارة الأوقاف الدور الأبرز بتأمين تلك المتطلبات، والتي تم تركيبها وفرشها داخل المسجد (الأشكال ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠)، والجدير بالذكر أن

إلا أنه على مستوى أكثر إنخفاضاً منهما بحيث لا تظهر عتبته التي تمتد أسفل مستوى أرضية الساحة الحالية إلا أن هذا المدخل قد تم إغلاقه بمداميك حجرية في فترة سابقة ربما تتزامن مع فترة إنشاء المدخلين الحاليين.

أما الجدار الشرقي للساحة والذي لا يظهر إلا وجهه على السطح والذي يبدو به اندفاع نحو الغرب مع عدم انتظام في قياسات عرضه والتي تراوحت بين (٦٦ - ٧٦سم)، لاختلاف المسافة بين حجارة صفي الجدار بسبب ميلانه نحو الغرب، والذي قد يكون سببه مرور بعض السيارات أو الآليات من فوقه أو بسبب ضعف أساساته، والتي بنيت فوق طبقة من التراب، كما أشار الدكتور غازي بيشه عن نتائج المجسات التي أجراها عند الزاوية الشمالية الشرقية لذلك الجدار، ومن خلال الصور المتوفرة في قسم التسجيل في دائرة الآثار والتي تعود لحقبة السبعينيات من القرن الماضي يظهر أن ذلك الجدار كان أكثر ارتفاعاً ويتخلله مدخل عند زاويته الجنوبية، وبعد تحديد مكان ذلك المدخل على أرض الواقع فقد قررنا رفع ذلك الجدار بمستوى مدماك واحد مع الإبقاء على مكان المدخل السابق بعرض (١٣٦سم)، علماً بأننا لم نعثر على ما يشير إلى وجود عتبة باب في ذلك الجزء من الجدار، مما يرجح بأن ذلك المدخل قد تم بناؤه مقابلاً للمدخل الغربي في فترة متأخرة، ليلعب طول ما تم إعادة بناؤه من ذلك الجدار (٥,٢٩م) بارتفاع



١٥. جدار الساحة الشرقي قبل الترميم.



١٦. جدار الساحة الشرقي بعد الترميم.



١٧. المسجد من الداخل قبل الترميم.

لاش: أعمال الصيانة والترميم لمسجد القسطل الأثري



١٨. المسجد من الداخل بعد الترميم.



١٩. الباب الخشبي الذي تم تفصيله
للمسجد.



٢٠. انارة الساحة الخارجية للمسجد.

وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية قامت منذ فترة بتعيين إمام وخدام للمسجد ، وبهذا فقد تم إعادة مسجد القسطل الأثري للحياة مرة أخرى بحيث يصح به أذان "الله أكبر" من جديد وتُسمع في جنباته همسات المصلين وهم يرددون آيات الذكر الحكيم مستذكّرين روح المكان وعبق التاريخ الذي شهد مجد المسلمين وحضارة دولتهم العربية.

مناقشة

من خلال دراسة أولية للمظاهر المعمارية في مسجد القسطل يتضح بما لا يدع لنا مجالاً للشك بأن الشكل الحالي وبالتحديد فيما يختص بالقسم المخصص للصلاة والساحة الخارجية يختلف اختلافاً كلياً عما كان عليه خلال المرحلة الأولى من البناء في الفترة الأموية، فكمية الحجارة المزخرفة، وحجم التاجيات وبقايا الأعمدة المتناثرة بجانب ساحة المسجد توحى بوجود عناصر معمارية غاية في الروعة والتي يبدو أنها قد تعرضت للتدمير والتحوير نتيجة للعوامل الطبيعية مثل: الزلازل، وعمليات إعادة الاستخدام المتكررة التي شهدها الموقع، فلم يبقَ شاهداً عليها سوى بقايا الأقواس التي كانت تزيّن الواجهة فوق باب المسجد وعلى جانبيه.

فمن الواضح أن الموقع قد شهد أوج نشاطه خلال الفترة الأموية ومن خلال شواهد القبور المؤرخة في مقبرة الموقع نستطيع الجزم باستمرار الإستيطان في الموقع خلال القرن الثالث الهجري أي بدايات الفترة العباسية، إلا أن أهم عمليات إعادة الاستخدام والبناء للمسجد قد حدثت خلال الفترة الأيوبية المملوكية، والتي تم خلالها بناء السقف النصف برميلي و بناء الدعامية الحجرية الملاصقة للجدار الشمالي للمسجد، فمن الواضح أن عملية إعادة البناء تلك قد تمت بشكل بسيط والذي من المرجح أنه قد تم تنفّذه من قبل مجموعة من السكان الذي استوطنوا المنطقة خلال تلك الفترة فقاموا باستخدام كل ما هو متوفر من حجارة دون مراعاة لشكل الحجر أو طبيعته أو ما يحتويه من زخارف، فيظهر للناظر الكثير من حجارة الأقواس التي تم استخدامها ضمن الحجارة العادية الأخرى خاصة في سقف المسجد من الخارج والداخل، ويرجح بأن البدء بعملية إعادة البناء في تلك

الفترة كان السقف الأصلي للمسجد منهاراً والجدارين الشرقي والغربي مائلين إلى الخارج بشكل ملحوظ، أما الجدار الشمالي فكان غير منتظم في استقامته مع ميلان باتجاه الشمال، بالإضافة إلى تهدم أجزاء من طرفه الغربي، فما تم عمله خلال تلك الفترة هو بناء سقف نصف برميلي يستند طرفيه الشمالي والجنوبي على الجدارين الأصليين من الداخل، بحيث يكون طرفي هذا السقف البرميلي ملاصقين للجدارين الشرقي والغربي دون أن يكونا مشرّكين بهما بحيث بقي هذان الجداران على وضعيتهما نحو الخارج دون معالجة، ومما ضاعف في ميلانهما واندفاعهما عملية الضغط التي شكلها السقف نصف البرميلي على مداميكهما العلوية، ومما زاد الأمر سوءاً بالنسبة للجدار الغربي هو تسرب مياه الأمطار إليه والتي كانت السبب الرئيسي في تآكل المادة الرابطة بين صفي الحجارة في ذلك الجدار والتسبب في نمو الأشجار والنباتات بين مداميكه، ومما زاد في ميلانه نحو الخارج هو فقدان معظم حجارة الأساس فيه، أما بالنسبة للجدار الشمالي فقد تم خلال تلك الفترة بناء دعامية حجرية ملاصقة له لتقوم بدعمه هو وقاعدة السقف نصف البرميلي المرتكزة عليه (الشكل ٢١)، كما تم إعادة بناء الجزء الغربي المتهدم منه بحجارة غير منتظمة الشكل منها ما هو حجارة أبواب كما يتضح من خلال (الشكل ٢٢)، حتى أن قاعدة القوس الخارج من الجدار الغربي باتجاه الشرق يبدو أنه قد تم حشوها بحجارة غير منتظمة مع الإبقاء على حجري قوس ظاهرين منها بحيث يتضح أن هذين الحجرين أيضاً غير متصلين ولم يكونا هما نفس حجري القوس السابقين وذلك لعدم تجانسهما (الشكل ٢٣).

من أهم ما تم الكشف عليه خلال عملية دراسة المظاهر المعمارية الداخلية للمسجد، هو حجر يقع إلى الشرق من المحراب أعيد استخدامه في الفترة الأيوبية المملوكية عند بنائهم للسقف نصف البرميلي ويبدو كما هو حال كثير من الحجارة المستخدمة في عملية إعادة البناء في تلك الفترة لم يلحظ من قاموا بإعادة استخدامه ما على هذا الحجر من خطوط وأشكال، وعند تدقيق النظر في ذلك الحجر يتضح بشكل مؤكد أنه عبارة عن ساعة شمسية أو ما كان يُطلق عليه اسم (المزولة)، والتي من المرجح بأنها كانت مستخدمة



٢١. السقف نصف البرميلي والدعامية.



٢٢. استخدام حجارة عشوائية في بناء جزء من الجدار الشمالي والسقف البرميلي.

مثلاً تلتقي رؤوسها عند النقطة التي كان مثبتاً بها القضيب المعدني الذي يمتد ظله عليها لتحديد الساعة، ومازالت بقايا ذلك القضيب موجودة في تلك النقطة، أما قاعدة المثلثات والتي تشير كل واحدة منها لساعة من ساعات النهار فكل قاعدة من قواعد تلك المثلثات مقسومة أيضاً إلى نصفين بحيث تقوم هذه المزولة من خلال ظل القضيب المعدني المنعكس عليها بإعطاء التوقيت لأقرب نصف ساعة من ساعات النهار، هذا

في أحد الأجزاء الخارجية للمسجد إبان الفترة الأموية، كونها تحتاج لمنطقة يتوفر بها سطوع لأشعة الشمس على مدى ساعات النهار، وذلك للتعرف على مواقيت الصلاة من خلالها، وهذه المزولة قد عُملت على حجر طوله (٤٦,٥سم) و ارتفاعه (٢٩سم) أما سمكه فهو غير واضح كون الحجر مثبت في الجدار، وقد نُحنت على وجه ذلك الحجر نصف دائرة يبلغ نصف قطرها (٢٢,٥سم)، وهي مقسمة إلى اثني عشر



٢٣. حجري القوس غير المتجانسين.

اشتملت أيضاً على إعادة بناء الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد من الخارج، فبالرغم مما شكله استخدام مادة الإسمنت من تماسك لأجزاء البناء إلا أن عملية إزالته حالياً تشكل عملاً بالغ الصعوبة و يتطلب وقتاً وجهداً كبيراً لا يقل عن سنة من العمل المتواصل، ولذلك فقد اكتفينا خلال هذا الموسم بإزالة ما هو موجود

وقد تم تنظيف المنطقة الملاصقة لجوانب ذلك الحجر وتعبئتها بالمونة المناسبة للحفاظ عليها. (الشكل ٢٤). إن من أكثر الأمور صعوبة للتعامل معها داخل المسجد هو إزالة كميات الإسمنت الكبيرة التي استخدمت بين حجارة السقف والجدران الداخلية خلال عمليات الترميم في ستينيات القرن الماضي والتي



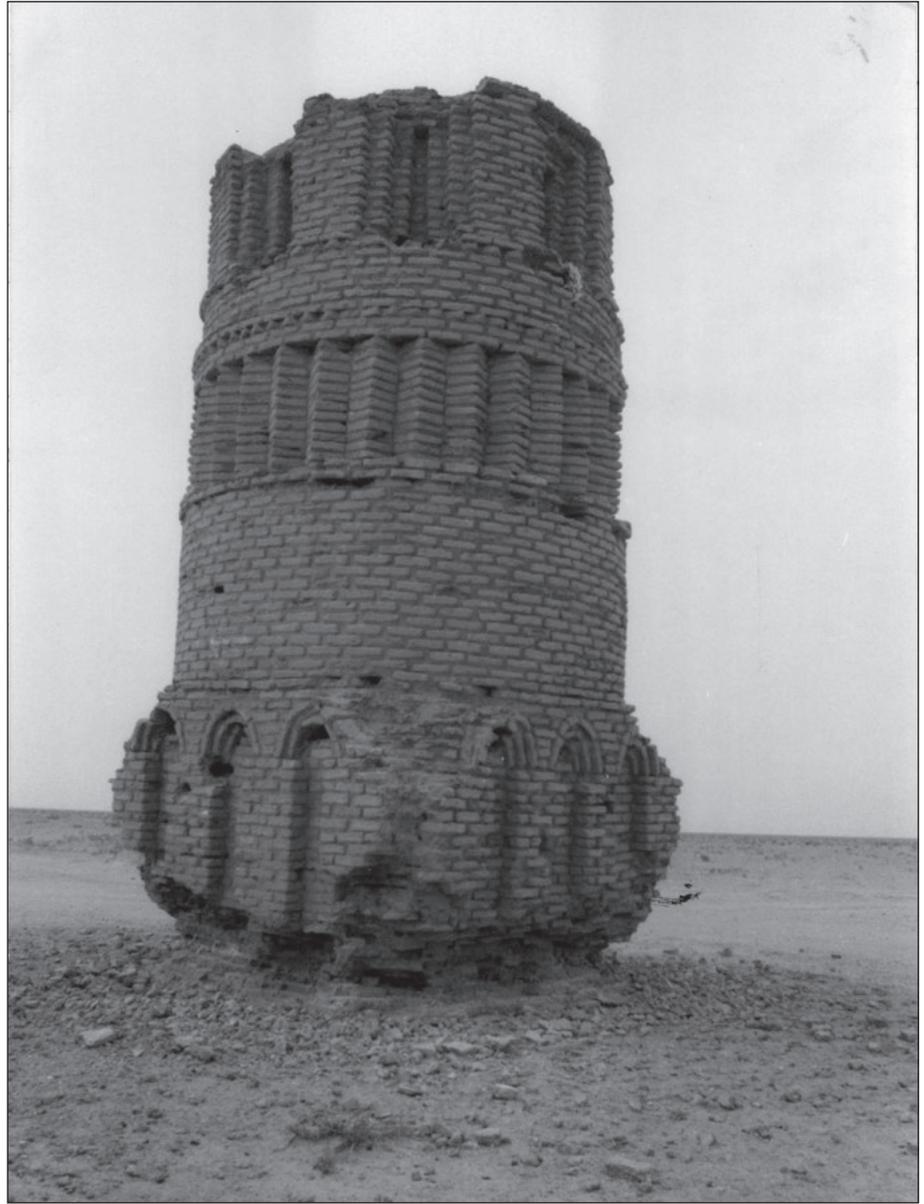
٢٤. المزولة.

البلقاء في الأردن لابد لنا من العودة لواحد من أهم الأحداث التاريخية في الفترة الأموية وهي التي أعقبت وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك واستلام أخوه سليمان بن عبد الملك مقاليد الحكم سنة (٩٦ للهجرة/ ٧١٥ م)، فمن المعروف ما كان من العداء بين سليمان بن عبد الملك ويزيد بن المهلب من جهة و الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق القوي وأتباعه من القبائل اليمانية من جهة أخرى، إلا أن مشيئة الله قد قضت بأن يموت الحجاج قبل أن يتولى سليمان بن عبد الملك زمام الأمور، لينتقل سخطه على الحجاج إلى أتباع الحجاج وآل بيته ولتكون الفرصة مواتية ليزيد بن المهلب الوالي الجديد والمقرب من سليمان بن عبد الملك للإنتقام منهم، والذي يبدو من تتبع الأخبار التاريخية بأن نسبة من القبائل اليمانية التي كانت تشكل عصب الحكم للحجاج و ثلثة من أهل بيته قد انتقلت إلى منطقة البلقاء، فتذكر المصادر التاريخية بأن يزيد بن المهلب قد بعث إلى البلقاء من عمل دمشق وفيها خزائن الحجاج بن يوسف وعياله ونقلهم وما معهم إليه (عطوان ١٩٨١)، ويبدو أن حالة الضنك التي عاناها آل الحجاج وأنصاره قد استمرت خلال عهد سليمان بن عبد الملك إلى أن آلت مقاليد الحكم إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك (سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠ م)، وفي تلك المرحلة كان الزمان قد دار دورته، فيزيد بن المهلب ألد أعداء آل الحجاج بن يوسف أضحى قتيلاً بيد يزيد بن عبد الملك وليعود الزمان ليبتسم لآل الحجاج أصحاب الخليفة، فزوجة الخليفة هي زينب بنت محمد بن يوسف الثقفي، أي أنها ابنة أخو الحجاج بن يوسف، وهي الزوجة المحظية لدى الخليفة وأم الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي ارتبط اسمه بالبادية الأردنية ويُنسب إليه مبانٍ عديدة مثل قصر عمرة وقصر طوبة والمشتى (لاش ٢٠١٢) بالإضافة إلى ما ذكرته المصادر التاريخية من إقامته في منطقة زيزياء حيث كان يُطعم هناك من صدر من الحجاج ثلاثة أيام (الطبري ٧: ١٩٦١). فيتضح لنا من خلال المصادر التاريخية بأن آل الحجاج و أعوانهم قد حظيو بالقرب من بيت الخلافة في عهد يزيد بن عبد الملك الذي ارتبط اسمه بموقعي الموقر والقسطل وهما اللذان يقول فيهما كثير عزة (سقى الله حياً بالموقر دارهم إلى قسطل البلقاء ذات المحارب)، وكذلك كان الأمر في

من إسمنت بين المداميك المحيطة بمدخل المسجد من الداخل والخارج واستبدال مادة الإسمنت بالمونة المناسبة والمكونة من الجير ورمل السلكا (رمل صويلح) و حبيبات حصى السيل.

لا يمكن الحديث عن موقع القسطل ومسجده دون الإشارة إلى مئذنة ذلك المسجد، تلك المئذنة الحجرية التي تعتبر أقدم مئذنة مازالت قائمة على مستوى العالم، والواقعة في الزاوية الشمالية الغربية من ساحة المسجد ذات الشكل الأسطواني المبنية على قاعدة مربعة، والتي يرجع الفضل في ترميمها والحفاظ عليها للدكتور غازي بيشة من خلال مشروع الترميم الذي قام بتنفيذه في العام ٢٠٠٤، (Bisheh 2007)

فمن المعروف أن بناء المآذن لم يكن شائعاً في الفترة الإسلامية المبكرة أي في عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، أو في عهد الخلفاء الراشدين من بعده، بحيث كان يُكتفى برفع الأذان من على سطح المسجد أو من فوق أسوار المدينة، فلم يكن هنالك جزء مخصص في المسجد يُرفع الأذان منه، وإن كان معظم الباحثين قد ذهبوا إلى أن بدايات بناء المآذن كانت في بلاد العراق وبالذات في مدن البصرة والكوفة قبل انتقالها إلى بلاد الشام، وهذا موضوع لن نخوض به فقد لخصه الدكتور غازي بيشة في مقاله عن مشروع ترميم مئذنة القسطل بشكل وافٍ وشامل ويمكن الرجوع إلى ما كتبه الدكتور بيشة في هذا الخصوص لمزيد من الفائدة، لكن السؤال الذي نطرحه هو كيفية انتقال بناء المئذنة من بلاد الرافدين خلال الفترة الأموية إلى منطقة القسطل؟ ما يهمننا في هذا الخصوص هو وجود مثال مشابه لمئذنة القسطل في بلاد الرافدين وهي منارة (مجددة) وفي لفظ آخر منارة (موجدة) وهي التي تبعد ٢٢ كم إلى الشرق من قصر الأخضر في كربلاء، تلك المنارة المبنية من الطوب المشوي بجسم دائري على قاعدة مربعة (الشكل ٢٥) والتي خلص الباحثون على تأريخها إلى الفترة الساسانية، إذن فهذا الطراز المعماري كان معروفاً في بلاد العراق وإن كانت الغاية الأولية من تلك المنارة هو استخدامها لهداية المسافرين عبر الطرق التجارية، ومن ثم استخدام هذا الطراز كمآذن لرفع الأذان في بدايات القرن الثاني الهجري، ولتتبع انتقال الطرز المعمارية من بلاد العراق إلى منطقة



٢٥. منارة مجدة قرب قصر الأخضر
في كربلاء.

واجهات وجدران تلك المباني، وأن مردّ هذا التأثير هو تلك الحركة السكانية التي شهدتها المنطقة من بلاد العراق باتجاه منطقة البلقاء نتيجة للأحداث السياسية التي أعقبت تولي سليمان بن عبد الملك لزمّام الحكم سنة (٩٦ للهجرة/٧١٥ م). والحظوة التي نالتها تلك المجموعة السكانية خلال عهد يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد، ليظهر تأثير انتقال الطرز المعمارية التي كانت شائعة في بلاد العراق وفارس إلى المنطقة التي انتقلوا إليها في أرض البلقاء، وعليه فإننا نرجح أن تاريخ بناء هذا المسجد ومئذنته يعود إلى فترة الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥ هجري/ ٧٢٠-٧٢٤ م). وفي ظل عدم وجود نص

عهد ابنه الوليد بن يزيد، فيذكر الدكتور حسين عطوان ما أورده المؤرخون مثل خليفة بن خياط في تاريخه وعلي بن حزم لأندلسي في كتابه جمهرة أنساب العرب، أن أخوة أم الوليد بن يزيد كانوا من كبار الموظفين في قصره وفي الأمصار الأخرى وكان أولاد عمّها الحجاج بن يوسف وحفدته يلون وظائف متعددة في دمشق وغيرها. (عطوان ١٩٨١). والذي قد نذهب إليه بأن المباني الأثرية مثل قصر الطوبة وقصر المشتّى ومئذنة مسجد القسطل قد شهدت تأثراً واضحاً بنمط العمارة الشائع في بلاد العراق سواءً من حيث طريقة وأسلوب البناء أو من حيث الزخارف والأشكال الحيوانية والأسطورية التي زينت بعض



٢٦. قبلة مسجد ابو بكر الصديق.

الباحثان)، فكان يكفي الاتجاه جنوباً عند الشروع في الصلاة وعليه كان يُحدد اتجاه المحراب عند بناء المساجد. وبعد اختراع أجهزة المساحة الدقيقة والتي يمكن من خلالها تحديد اتجاه بيت الله الحرام في مكة المكرمة بالنسبة للمنطقة التي يكون الشخص متواجداً فيها، فقد تم ملاحظة أن كثيراً من المساجد ومنها ما بُني في القرن العشرين قد تم بناؤها باتجاه ينحرف عن اتجاه القبلة، ولدينا في مسجد أبو بكر الصديق والمعروف بإسم مسجد الشيشان في مدينة الزرقاء والذي بُني في بدايات القرن العشرين خير مثال على ذلك، حيث قامت وزارة الأوقاف قبل ما يقرب من أربع سنوات بتعديل اتجاه القبلة فيه بعدما تبين من خلال أجهزة المساحة الحديثة انحرافها إلى الغرب عن اتجاه مكة المكرمة (الشكل ٢٦) وكذلك الأمر بالنسبة لمسجد عمر بن الخطاب في الزرقاء الذي بني في النصف الأول من القرن العشرين والكثير من المساجد الأخرى في المملكة، فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للمساجد فمن الطبيعي أيضاً أن نشاهد الانحراف في اتجاه بعض القبور إذا أردنا استخدام أجهزة المساحة الحديثة عند تحديد اتجاهها.

وفي نهاية هذا البحث لا بد من الإشارة بالشكر إلى فريق معهد مادبا لفن الفسيفساء لقيامهم بتنفيذ أعمال الصيانة الوقائية لبعض الأرضيات الفسيفسائية داخل غرف قصر القسطل تحت إشراف السيدة

صريح مُكتشف حتى الآن يبقى هذا التاريخ ضمن باب الفرضيات التي تحتمل القبول والرد.

قبل الإنتهاء من هذا البحث لا بد لي من الإشارة إلى نقطة كان قد أوردها الباحثان الفرنسيان باتريشيا كارليير وفريدريك مورين في مقالهما المنشور في حولية دائرة الآثار (Carlie and Morin 1987) عن نتائج عملهما في موقع القسطل، فمما لاشك فيه أن عمل هذين الباحثين قد يكون من أشمل المشاريع التي تم تنفيذها في قصر القسطل ومسجده وخاصة في الجانب التوثيقي والتحليلي للعناصر المعمارية في الموقع ومحيطه، إلا أننا قد لا نتفق معهما فيما ذهبوا إليه من تحليلهما لانحراف اتجاه محراب مسجد القسطل وبعض القبور الإسلامية الأثرية في مقبرة القسطل كونها لا تتجه مباشرة نحو مكة المكرمة بل تنحرف نحو الجنوب الغربي قليلاً، وقد خلص الباحثان إلى أن مردّ هذا قد يكون في رغبة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان باتخاذ بيت المقدس قبلةً للمسلمين وتعظيمها بدلاً من مكة المكرمة التي كانت تحت سيطرة عبدالله بن الزبير، وهذا كلام قد يكون انطوى على مغالطة بدون الاستناد على أدلة حقيقية، فكما هو معروف فإن قبلة المسلمين في بلاد الشام ومن ضمنها الأردن، هي باتجاه الجنوب، حيث توجد مكة المكرمة وقد كان تحديد اتجاه القبلة حتى وقت قريب يتم بدون أجهزة المساحة المتوفرة حديثاً، (كذلك التي استخدمها

- ١٩٦١ تاريخ الرسل والملوك، ج/٧، تحقيق، محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر.
الطبري، محمد بن جرير
١٩٦١ تاريخ الرسل والملوك، ج/٣، تحقيق، محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر.
عطوان، حسين
١٩٨١ الوليد بن يزيد عرض ونقد، دار الجليل، بيروت.
لاش، احمد
٢٠١٢ قصر طوبية شاهد حي على سقوط دولة بني أمية،
حولية دائرة الآثار العامة ٥٦: ٩-٢٩.

Bibliography

- Addison, E.
2000 The Mosque at al-Qastal: Report From al-Qastal Conservation and Development Project 1999-2000, *ADAJ* 44: 477-491.
Bisheh, G.
2007 The Umayyad Minaret at al-Qastal and its Significance, *SHAJ (IX)*: 263-267.
Carlier, P. and Morin, F
1984 Recheches Archeologiques Au Chateau De Qastal (Jordanie), *ADAJ* 28: 343-383.
1987 Archaeological Researches at Qastal Second Mission 1985, *ADAJ* 31:221-246.
1987 Qastal al-Balqa': An Umayyad Site in Jordan, The Fourth International Conference on the History of Bilad al-Sham, VOL II: 104-138.
Bacquey,S and Imbert, F.
1986 La Necropole De Qastal, *ADAJ* 30: 397-404.
Kreswell, K. A. C.
1969 Early Muslim Architecture, Oxford.

سماهر عيسى. ومن الجدير بالذكر أن أعمال الصيانة والترميم وإعادة التأهيل لمسجد القسطل الأثري قد تمت من خلال كوادر دائرة الآثار العامة ومن موازنتها الخاصة بالإضافة إلى المساهمة المشكورة من وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في تأمين السجاد وأجهزة الصوت للمسجد. ولا بد لي من أن أتقدم بالشكر إلى فريق العمل الذي رافقتني خلال هذا المشروع وهم الإخوة العمال، والسائق عامر الجبور والمساح توفيق الحنيطي، وأخص بالشكر الكادر الفني في دائرة الآثار الممثل بالسيد شكري منون وأحمد جميل اللذان كان لهما الدور الأبرز في إنجاز أعمال الصيانة والترميم بكل مهارة واحترافية.

المراجع

- ابن حزم، علي بن أحمد
١٩٨٣ جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت.
ابن خياط، خليفة
١٩٦٨ تاريخ خليفة بن خياط، وزارة الثقافة السورية، دمشق.
البكري، عبدالله بن عبد العزيز
١٩٨٣ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، عالم الكتب، بيروت.
بيشة، غازي
٢٠٠٤ ترميم المنذنة الأموية في القسطل، تقرير غير منشور،
دائرة الآثار العامة
الحموي، ياقوت
١٩٩٣ معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.
الطبري، محمد بن جرير